الدستور

والنعرات المذهبية

لنيسي المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

إنّ من يعرف الشرق العربي قبيل الدستور يعرف ما بلغهُ من الاختلال الاجتماعي والاقتصادي . فسياسة الحكومة الخرقاء والدعايات الاجنبية المختلفة كانت من افعل الوسائل لتوسيع شقّة الخلاف بين ابناء البلاد حتى اصبحت البغضاء الطائفية مستحكمة الحلقات وكثيراً ما كان ذلك يفضي الى « حوادث » دامية وشرّ مستطير . ومهما نحاول تخفيف الامر فلا سبيل الى انكار ما كان في العهد الحميدي من حزّازات بين الاكثرية والاقلية ، بل بين الفروع التي تنتمي الى كلٍّ منهما . وفي ذلك يقول سليمان البستاني وهو عثماني صميم ومن الذين خدموا الدولة نائباً ووزيراً «لم يكن من مصلحة ظلمة الاستبداد في الحكومة الغابرة ان يؤلّفوا بين القلوب اذ كانوا يعتقدون لجهلهم ان وفاق الامة يدك معاقل صولتهم »[1] والى هذه الحال يشير بطل الانقلاب يازي بقوله من خطبة القاها في جمعية الاتحاد والترقي وذلك قبيل اعلان الدستور[2] « تعلمون ان سفالة الحكومة وجبنها وهوسها صيّرتا سخرية بين الناس والذي يجب ان نقوم به لقاء الحكومة ولقاء مؤامرة اوربا على تقسيمنا هو ان نثبت فعلاً في ثورتنا هذه اننا نحب المسيحيين كاخواننا ونساوي بينهم وبيننا . فليست ثورتنا ضد الاشخاص والعناصر بل هي نهضة ضد اصول الادارة التي اوقعت العداوة بيننا وبين اخواننا في الوطن». فيازي هنا يصرّح بهذه الحقيقة المؤلمة ويعزو اللوم في ذلك الى سوء الادارة من جهة والى سياسة المستعمرين من جهة اخرى . ولقد يصحّ ان نستثني مصر لما كانت تتمتع به من حرية اجتماعية بعد الاحتلال على ان سائر البلدان العربية ولاسيما سوريا كانت — كما هو معروف — تتخبّط في دياجير التعصّب

(١) كتابه عبرة وذكرى (١٩٠٨) ص ١٠١ (٢) من تأملات يازي رابع الوردانصافي ١ — ٩٤

وتقاسي منهُ الاهوال . فلا عجب اذا رأينا السوريين واللبنانيين يهاجرون الى وادي النيل او يضربون في آفاق الارض سعياً وراء الرزق والحرية . وقد اصاب حافظ ابرهيم اذ قال في وصف هؤلاء المهاجرين [1] —

لم يحمهم عَلَمٌ فيها ولا عددٌ ... سوى مضاء تحامى وِرْدَهُ الذُّيَّابُ
لهم بكلّ خضمٍّ مسرب نهج ... وفي ذرى كل طودٍ منه عجبُ
ما عابهم انهم في الارض قد نُثروا ... فالشهب منثورةٌ مذكانت الشهبُ

ولا ينكر ان كثيرين من العقلاء كانوا يرغبون في الحسنى . وفي القضاء على هذا الاختلال الاجتماعي المؤذي ، لكن السياسة على ما يظهر لم تمكّنهم من ذلك

فلما أعلن الدستور ونودي في الناس بالحرية والمساواة والاخاء زال الضغط فجأةً عن الصدور حتى رأينا من غريب المشاهد ما كان له اثر عميق في ادب ذلك العهد . زعماء الطوائف يتعانقون في الساحات العمومية ويتعاهدون على المودّة الاخوية . قال الدكتور هرود بلس من خطبة له القاها في الجمعية الجبرانية الوطنية باميركا (في ١٨ دسمبر ١٩٠٨) ذاكراً تلك الحال في بيروت — [2] « فأطلقت حينئذٍ الحرية في المدينة ولم يعد الناس يملكون ضبط نفوسهم عن اظهار بهجتهم — والناس الذين قضوا السنين الغابرة والعداوة بينهم مستحكمة صاروا الآن اصدقاء اعزّاء في الحفلات والمجتمعات وصار رؤساء الدين من المسيحيين والمسلمين يتضامون ويتعانقون . قطعت الاغصان من الاشجار وأتي بالبسط من المنازل وأكتظت الشوارع بالناس فكانوا يضيفون اخوانهم الذين فقدوا صداقتهم زماناً طويلاً . وكانت امارات المودّة والالفة ظاهرة في كل مكان حتى بين الرعاع وذوي الجرائم »

ولنترك لاديب بيروتي معروف وصف مشهد من هذه المشاهد وهو اطرفها لا حدث في اهم الحواضر العربية قال — [3] « من أبهج ما رأيت من هذا الوفاق ان نفراً من شبان حيّ السراي (حي اسلامي) ركبوا العربات فسارت الى محلة الجميزة (حي مسيحي) فجدّدوا عهود الاخاء مع اخوانهم المسيحيين بعد ان ابلاها الجهل ورجال السوء . هناك تآخى الفريقان وتحابّ القبيلان وعلموا ان اللبنانيين جسم واحد تديره روح واحدة »

ويزكي هذه الشهادة ما ذكرتهُ مجلة الهلال عن بيروت اذ قالت [4] — « اظهر اهل بيروت بعد اعلان الدستور ما ادهش العثمانيين من الاتحاد والحرية الشخصية وصحة المدى . فقد كان أهلها اول من تصافح فيهم الشيخ والشماس . واظهروا في اثناء انتخاب النواب لمجلس الامة

(١) من قصيدته الشهيرة (لعمر ام لربوع الشام تنتسب) (٢) راجعها في المقتطف ٣٤ — ٣٥٠
(٣) مصطفى الغلاييني في لسان الحال ٦ آب ١٩٠٨ (٤) الهلال مج ١٦ — ٩٩٦

استقلالاً في الفكر واتحاداً في الكلمة. ولما وثب بقية حزب التقهقر بجمعية الاتحاد والترقي بالاستانة كانوا في مقدمة الناقمين على الوالين، وقاموا يؤيدون الدستور بخطابهم ورسائلهم. وعزوا على بعض الجواسيس يسعون في التفريق بينهم فنبضوا عليهم . وجدد دوا الوفاق بين طوائفهم . وقالوا اذا تباغضت الطوائف في كل المملكة فنحن متفقون في نصرة الدستور الى آخر نسمة من الحياة »

والشعراء في هذا الوفاق وفي الحض على نبذ التعصب القديم قصائد كثيرة نجتزىء منها ببعض مقطعات على سبيل التمثيل . فمن ذلك هذه الابيات [1]

قد صرتم امةً في الارض واحدةً ... من آل عثمان لا عُرباً ولا عجما
فلا تفرّقكم احيالكم فرقاً ... ولا تقسّمكم اديانكم قِسَما
كم قيدوكم بها اسرى وكم سفكوا ... دماءكم او احلوا فيكم النقما
واليوم جرّد سيف الحق صاحبه ... وعاجم الظلمَ حتى فرّ منهزما
تعانق الشيخ والقسيس واصطحبا ... من بعدما افترقا ضدين واختصما
تآخيا في حمى الدستور واتّحدا ... ورفرفت راية التوحيد فوقهما

وهذه النغمة تسمعها في بيروت كما تسمعها في دمشق وبغداد وسواها . فمن دمشق مثلاً قول أحد أدبائها [2] من قصيدة : —

أيها الشرقيُّ قد بلّغتَ ما ... كنت ترجوه فهل تمّ خلل
فانبذ البغضاء والحقد ودع ... كلَّ ما فيه فسادٌ وزغل
كلُّ من في الشرق اخوانٌ فلا ... فرق بين الخلق من كلّ النحل

ومن العراق قول شاعره [3] —

أكرم بمصرٍ حيانا بالمساواة ... وخصنا بالتهاني والمسرات
عصرٌ به قد تآخينا فليس ترى ... بعد الاخاء طريقاً للعداوات

والذي يظهر من مراجعة النقات الدستورية ان هذا الشعور الأليم بمساوي التعصب الديني كان أبرز في الشعر السوري اللبناني منهُ في سائر الاقطار العربية . ولعلَّ من أسباب ذلك أن مسألة « الاكثرية والاقلية » لم تبلغ في مكان ما بلغتهُ في الاقطار السوريّة . فمصر كما ذكرنا كانت تحت نفوذ الاحتلال ، والعراق قطر اسلامي لا قوّة للاقلية فيه وبالتالي لا تنافس طائفي موجب للبغضاء . وان كان شيء من ذلك في ذلك الحين بين المسلمين أنفسهم من سنّة

(١) من قصيدة لتقولا رزق الله الهلالي ١٧ — ١٧٢ (٢) هو شاكر يالين: شيخو ٢ — ١٦٥
(٣) من قصيدة: راجع شيخو ٢ — ١٦٤ (ولم نجدها في ديوان الشاعر)

وشيعة . ولم يظهر في الشعر العراقي من اشارة الى احتكاك السلفين بالمسيحيين الا في عهد الانتداب ، كما نرى في قصيدة وجّهها الرصافي الى المسيحيين ومطلعها (١) —

أما آن أن تُنسى من النوم أضغان ... قبيحٌ على أمّ المساواة بيان
علامَ التعادي لاختلاف ديانةٍ ... وإن التعادي في الديانة عدوان
إذا جمعتنا وحدةٌ وطنيّةٌ ... فماذا علينا أن تُعدّد أديان

وهي طويلة وتكشف عن خوف العراقيين من السياسة العاملة على هدم الكيان القومي بالتفريق بين طوائفه . وسنرجع الى ذلك بعد .

أما سوريا وبنوع خاص منطقتها الساحليّة التي تشرف عليها جبال لبنان فقد كان التناقض الطائفي فيها على أشدّه ، وكانت دائماً أكثر تعرّضاً للدعايات الاجنبية وأكثر اختلاطاً بالحضارة الغربيّة . فنشأ عن ذلك ضغائن ورواسب دموية كان لها أثر عميق في النفوس . فلا بدع أن نرى الشعر السوري واللبناني في ذلك العهد أشدّ تهجماً على التعصّب الديني وأكثر ترحيباً ورجاء بالعهد الجديد . وقد حملت الثورة الدستورية بعضهم على الخروج عن حادّة الاعتدال . فلم يقفوا عند حدّ التهليل بالاخاء والدعوة الى نبذ الاحقاد ، بل تجاوزوه الى درجة التطرف فصاروا يعزون الى الدين ورجاله كلّ أسباب التعصب والشقاق ، ويرجعون اليهم كلّ ما أصاب الشرق من البلايا الاجتماعية ، كقول احد شعراء المهجر (٢)

وإني ليوهيني تقسّم أمتي ... بأديانها والشرّ بين المذاهب
متى ينتهي كهّانها وشيوخها ... فنخلص من حيّاتهم والعقارب
شقينا لتيهم وراحتهم فهم ... يموتوننا كالميس تحو الحاطب
فما الدين إلاّ نسخة بعد نسخةٍ ... يزخرفها للناس أهواء كاذب

وفي الشعر الدستوري كثير من مثل هذا التطرّف (ومظمئه في الاوساط المسيحية) . فلا عجب اذا رأينا رجال الدين ينكرون ذلك ويقاومونه كما فعل الآب لويس شيخو في كلامه على الحالة الدستورية إذ قال (٣) . « وأسوأ من هؤلاء (أي المبالغين والمتهوّرين) اولئك الذين تسرّبوا بالدستور فاستباحوا في شعرهم شعار الدين واتّهكوا حماه وبحروا حتى مثّلوا فترى هذا ينسب الى الدين كلّ الشرور وأسباب التقهقر ، والدين كما لا يخفى يأمر بالاخاء والتحاب

(١) ديوانه (١٩٢٣) ١٥٠ (٢) ابو الفضل الوليد في « أغاريد وعواصف » ٤٠ (٣) آداب القرن التاسع عشر ٢ — ١٦٨

وغيره يدّعي أن الدين لا دخل له في العمران وانهُ من المسائل العرضية (كقوله)

خلِّ قسّي وشيخكم في جدالٍ وأحكمِ لي في المسائل الجوهرية

وإذا ذكر الذين حُكم عليهم بالظلم وقت الاستبداد تعجّب أنهم لم يكرموا كالهة مثل السيد المسيح

مات عيسى فألّهتهُ ألوف وألوف ماتوا وراحوا ضحيّه

« ويجعل آخر كلّ الاديان متساوية وكلها صحيحة » . . . الى ان يقول .. « فنشدكم الله ايها الشعراء صونوا تراثكم من كل امتهان ولا تبتذلوا موهبة جاد بها عليكم المنان »

***

ولا بدّ لنا من القول ان هذه الحرب التي اثارها الشعر الدستوري على التعصب الديني قد احدثت شيئاً من التقارب المنشود، لكنهُ لم يكن ثابت الاركان . فظلت الطائفية اساس الاجتماع والسياسة في البلدان العربية . وظلت مسألة الاكثرية والاقلية عقدة من العقد المستعصية ، حتى في مصر حيث كانت السلطة الاحتلالية تقوم بدور الحماية لحقوق الاقليات . ففي سنة ١٩١١ عقد الاقباط في اسيوط مؤتمراً خاصاً للمطالبة بامور تتعلق بطائفتهم [1] وازاء ذلك عقد المسلمون مؤتمراً في عين شمس [2] ومن بواعث الرضى أن جوّ المؤتمرين كان مشبعاً بروح الوئام . الاّ أن المدقق في البواعث على انعقادها لا يسعهُ الاّ ان يرى شبح الطائفية فيها ماثلاً للعيان . وكذلك كان هذا الشبح في سائر الاقطار العربية

فالدستور أرهف الشعور الاخوي بين الطوائف حيناً ، وفتح للاحرار باب التهجم على التعصب ، حتى ظنّ كثيرون ان اسباب الجفاء الديني قد زالت من الشرق العربي ، وان ابناء الشرق ، على اختلاف نحلهم ، سيضعون في ظل الحياة الجديدة عهد جديد تتقلّب فيه روح الوطنية الحرّة في نفوس الجديدة المتآلفة . والحق يقال ان الشعر العربي لم يقصّر في الدعوة لهذا العهد الجديد ، ولم يألُ جهداً في اثارة النفوس لتتخلص من قيود الاوهام وما ورثتهُ من مخاوف الثورات الكلامية فحادت عن الظهور ولا تزال الى الآن تعمل عملها في حياة الشرق الاجتماعية والسياسية . ونرى انهُ قد ظهر بعد هبّة الدستور هبّات اخرى هي ايضاً أرهفت الشعور الوطني واعدّته باشرفين على الاتحاد والوئام . على ان عوامل التفريق لا تزال تعمل في الشرق عملها الخبيث . ولا يزال الشرق رغم الجهود البذولة بعيداً عن هدفه الوطني المنشود

(١) الهلال ١٩ — ٥٠٦ وكان كاتب هذه السطور ممن اتيح له حضور هذا المؤتمر

(٢) « ١٩ — ٥٠٧

﴿ بعد النشرة الدستورية ﴾ حاولنا فيما سبق من تاريخ العواطف العربية بوصفنا الاثر الذي أحدثهُ الدستور الاول وعلة في نفوس العثمانيين وابناء الشرق الاوربي . وقد رأينا كيف برز الشعر في مفتتح العهد الدستوري بحلل قشيبة من الحماسة شدا بها الامل وملأها الاستبشار . على انهُ لم يظلّ كذلك طويلاً . فلم تكد تمرّ سنة على اعلان الدستور حتى رأينا كثيراً من النغمات الشعرية مصطبغة بألوان قاتمة من الاشفاق والحذر . ولو تحرّينا الاسباب لوجدناها متباينة الاصول . فمنها نفسيٌّ ومنشأه ذلك التراخي الذي يعقب طفرة شدّة الانفعال او الثوران العصبي . خذ الغضب مثلاً فهو يثير النفس ويسعرها موقتاً بشيء من القوة ، لكنهُ لا يلبث ان يزول ويعقبهُ « رد فعل » مقترن بالضعف والهبوط . ومثله الاغراق في الحبور او الحزن والامل وما الى ذلك من الظواهر النفسية . وذلك ما حدث في الهبة الدستورية . فقد كان الشعر على اثرها متوتّراً شديد الحماسة ثملاً يترنح بخمرة الانغماط . تهزج ورقص صخب ما شاء . ثم عراه في بعض الاوساط هبوط تدريجيٌّ الفى عليهِ سمة من التشاؤم

ومن اسباب هذا التشاؤم خيبة الامل في النظام الدستوري . كان الناس يرجون من الدستور المستحيل . يرجون منهُ ان يقلب الاحوال وينير الطباع وان يجيء لهم فجأة باسباب التقدم والسعادة . على ان النظام وحده غير كافٍ ، ولا بدّ من اتحاد الزمن والعلم والاخلاق للوصول الى الغاية المنشودة . وكما ان الشجرة لا تثمر الاّ اذا تهيأت لها اسباب النموّ ولا تثمر الاّ متى حان الاوان ، كذلك كل دستور . وما على القائمين بهِ الاّ تعهده بحنكة واخلاص ، وتدريب الناس تدريباً منظّماً على السير بموجبه والعمل بمقتضياته . ولا شك في ان العثمانيين عموماً لم يكونوا على استعداد كافٍ للحياة الدستورية . وقد ظهر في تطبيقه نقائص لم يكونوا يترقبونها مما أثار في النفوس احساسات ممكوسة ظهرت في الادب بمظهر الخيبة والتشاؤم

واذا عرفنا ذلك عرفنا الدافع الى قول جرجي زيدان بعد زيارته لسوريا ولبنان عام ١٩١٠ مشيراً الى التشاؤم المستحوذ على بعض النفوس . وحذّراً من التمادي في ذلك[1] « وطائفة تمثّلت استبداد الدستور فعبّر بعد ان نصب الملكة العثمانية التي تضحك من ذيلها حال الاحتضار وقد نضبت ماليتها وأجدبت أرضها وأظلمت مدنها وخُرّبت طرقها وشوارعها وفسد كل شيء فيها حتى اخلاق أهلها . واختلّ نظام اجتماعها وفرّق التعصب بين طوائفها ومذاهبها — تريد هذه الفئة من المتفدين ان تصير هذه المملكة في سنتين مثل اوربا وهذا مستحيل »

فقد أدرك زيدان يومئذٍ ما كان يشعر بهِ الناس عموماً من سوء الظن بالحكومة الدستورية وخيبة الامل بما أعلنتهُ من الاصلاح ، فهو يجاريهم في النقد بل رأى التريث والصبر أولى وأحسن

(١) راجع الهلال ١٩ — ٢٩

للوصول الى الغرض المقصود . وقد شاركه في ذلك كثير من المفكرين . الاّ أن بعض الشعراء لم يستطع الصبر على هذه الحال فاندفعوا في سبيل الهكم والانتقاد ، كقول الرصافي من قصيدته شكوى الى الدستور [١]

قل أيها الدستور تسمع شاكياً بك اليوم يرجو ان يرى نهضة الشرق
لقد جئت من أفق الصواب طالعاً علينا طلوع الشمس من منتهى الافق
تصادفت منّا أمةً قد تشتّت لقاءك حتى جاوزت مبلغ الشق
وظلنا نرجّي منك للخرق راقعاً ولكن تراخي الامر متسع الخرق

وقول الشاعر القروي في البرازيل [٢]

جاءت فكبرنا وشقّ هتافنا قلبَ الجنان تيتاً بالجاني
ودعا الفقير لها وسمّاها أخو البؤس الشديد بأعذب الاسماء
حتى اذا فتر التحمّس وانجلى صبح الحقيقة عن دجى الضوضاء
نادى فلم يجد النداء ودعا فما لبّاهُ غير تجاوب الاصداء

ولولي الدين يكن قصيدة موضوعها (الاسترقاق في أيام الحرية) صدّر بها أحد فصول كتابه الصحائف السود سنة ١٩١٠ . وفيها يقول عن الحرية

تشتاق في عزّها ذويها وحصنها دونهم حصين
حتامَ هذي القيود تبقى يارب قد كلّت المتون

وقد عبّر عن عواطف كثير من الناس حين قال على طريقته الشعرية النثرية [٣]

« قلت حين نبذوا لنا حيفة الدستور : تؤازر هؤلاء القوم القائمين فينا بالامس ربما أصابوا من حيث لا يشعرون . وكم رمية من غير رام . وقلت اطمئني أيتها القلوب واسكني يا ثائرات النفوس . ووقف اخواني الثمانيون يتفرّجون فما راعنا الاّ مذابح وفتن ، وغارات تتلوها غارات ، وصخب وضجيج ، وبنا نواب الامة يتجاذبون أطراف الفوائد كلٌّ يريد أن يسمّن كبشه » ثم يقول « اخواننا الذين يظلهم الدستور العثماني لا قبل لهم بمعارضة الحكام وهم معذورون . كمْ شفارٌ أرهفت ، وسيوف سلّت تتخطف الرقاب كما تتخطف الثمار »

ويبلغ به التشاؤم مبلغه في هذين البيتين [٤] مخاطباً رجال الدولة

أفلا يزال السوط حاكمكم وأبو السباط يلذّ ذعرا [٥]

---

(١) ديوانه (١٩٣١) ٣٧٥ (٢) الرشيديات (سان باولو ١٩١٦) ٧١ (٣) راجع كتاب التجاريب (١٩١٣) ٢٤و٢٥ (٤) راجع كتاب التجاريب (١٩١٣) ٤٢ (٥) اشارة الى اقتفاء احمد الحيدي

وقولي أحراركم تنصحكم لا حرّ فيكم كلنا كذبا

على ان أهم ما نعثر عليه في هذا الباب قصيدة موضوعها « بين أنقاض الوطن » قالها يصف حال الدولة وما وصلت اليه على يد الدستوريين وهي تليف على الستين بيتاً [1]

سلطة بترت واقبرنا بحدّه ربما يجني من كاذب الحلم حالمُ
أقيم بناء بالعراء على شفا ولم تقو آساس له ودعائمُ
فما ظنّ ... قائماً فهو مائلٌ ومن ظنّ منهم بانياً فهو هادمُ
وأربعة [2] مرّت ولم تحل لامرئ شهادتُ على الاقطار وهي صمائمُ
تعوّض يأساً من غدا وهو آملٌ وشام يقيناً من مرى وهو واهمُ

ومثلها تشاؤماً وسخطاً قصيدة موضوعها « التعصب يخرج الحرية من ديارها » . قالها حين تولى الحكام جيل الزهاوي من بغداد ومطلعها « اسيرٌ بدار الظلم اعياه آسره » وفيها يندد بالجور والتعصب ويلوم اولي الامر على انتهاك حرمة الدستور . وهي تبلغ ثلاثين بيتاً ويتجلى لك روحها في قوله [3] —

أحين هوى عبد الحميد بعرشه وغيره بالغم في الناس غايره
يقوم اناس يستعيدون عهده وفينا بازي قائم وعساكره
ألا لا ترجّي العدل والحق دونها مرارته محيية ومصادره
تمهل زماناً ثم لم تتسم لنا ازالة حتى استمرّت اواخره

فرلي الدين يكن من الاتحاديين الدستوريين الاولين بالاس واتحط على اخيرات مما يجعل الدستور نظاماً أجوف خير منه . وقد يقال ان هذا الشاعر عصبي المزاج يميل الى سوء الظن فيبالغ في نقده سيئات الدستوريين . على انه لم ينفرد بذلك والذي يراجع ادب ذلك العهد يجده مشبعاً بالياس والمرارة . او على الاقل مصطبغاً بصبغة عدم الرضا كما ترى في مقال لرفيق العظم مود ... رب في [4] يسمي الاتحاديين ... ثم يتحفظ اخيراً فيقول — « ان الاحزاب في البلاد الدستورية كالقواعد التي يشاد عليها بناء الدستور . ولا يمكن لقاعدة واحدة ان تحمل ذلك البناء . فهل لاحظنا الاتحاديين ان يسموا في هذا الامر قليلاً ليعلموا ان القوة لا تنبع بحزب واحد يحمل ذلك البناء الثقيل بازاء امة جامدة مثل هذا الجمود المخيف . فهي في حاجة الى من يسوقها الى ميدان السياسة ويرشدها الى فضيلة الحكم

(١) راجعها في التجارب ... (٢) أربعة اعوام مرت على اعلان الدستور (٣) راجعها في التجارب ... والمقتطف ... — ٢٩٢

الدولي ألا وهي الاحزاب فانها هي التي تتولى تمرين الشعب على ذلك الحكم وتشوقه اليه لتكون يداً واحدة في المحافظة على الحرية والدستور» وهذا الكلام كلام عارف بأحوال البلاد مطلع على دخائل الامور. فهو ليس فيه لذع ولي الدين ولكن فيه ما يشير الى الاسباب التي ادرت كوامن نفسه احساسا

ومن المتقدين من رأى الخلل في الشعب نفسه لا في القائمين باصلاحه او المتولين لشؤونه فمن الاجحاف عندهم ان تلقى كل التبعة او معظمها على عاتق الذين احدثوا الانقلاب وتولوا الاحكام. وان يعزى اليهم وحدهم هذا الفشل في تحقيق النظام. وعن ذلك يقول الاستاذ الدكتور فيليب حتي من خطبة له موضوعها من اللوم[1] — «ما لنا قائمة نبدأ على حكومتنا ورجال الحكم فيها ولا لوم على هؤلاء ولا تثريب. انما اللوم كل اللوم علينا نحن الامة. ان الحكام ليسوا الا بعض افرادها يرتقون بارتقائها وينحطون بانحطاطها. يقولون الداء اختلاف العناصر والدواء ائتلافها وامتزاجها — يقولون الداء «المركزية» والدواء توسيع اللامركزية والسلطة الادارية — يقولون ويقولون والواقع غير ما يقولون. الداء الحقيقي هو جهلنا حقائق الامور وانحطاطنا علميا وأدبيا كأفراد وبالتالي كجمهرة» والدواء المهذب الحقيقي. وما الضعف القومي سوى عبارة عن مجموع الضعف الافرادي. اننا في حاجة الى تهذيب عام يشمل الشبان والشابات — حاجتنا الى مبادىء قويمة في آداب عصبية — الى رجال» وتصف لنا الثمرة نفسها قصيدة المؤلف موضوعها «الفاشية في الشرق» وقد نظمت على اثر بعض الحوادث المؤسفة عام ١٩٠٩ ومنها[2] —

سلانيك(٣) حي الجند عنا وسلمي عليهم سلام المستهام المتيم
وهبت لنا الدستور منك تكرماً وما نحن اهل للعطا والتكرم
ضجيج وأرهام هو الشرق كله فهل من فحول في الشدائد مقدم
يقولون ان الشعب في الشرق حاكم وربك ما للسلطان منه بأعظم
أنيروا ذرى الجاهلين فانما في الشرق نسرقي في الظلام المخيم
أنيروا أنيروا الجاهلين وبشروا بدستوركم في دار الشرق يعلم
فما الشعب بالرأي العمومي ناهض الى ذروات المجد غير سلالم

وعما زاد الحالة تفاقماً والنفوس تشاؤماً ما نشأ بعد خمود اثارة الدستور من الفتنة الطائفية بين العرب والاتراك. بعد تلك الغبطة المتفائلة التي نراها في الادب ما بين سنتي ١٩٠٨ — ١٩٠٩ والتي كانت تميل الى تعزيز الجامعة العثمانية والتباهي بها أمام الاجانب، أحدث التشاؤم يتسرب الى بعض الاوساط التي تنتمي العرب الى العثمانية فحنقوا عليهم وصاروا يهجون بدوبهم بعضهم في السلطة وتلك هي الثمرة الاولى من الثمار التي تأججت بعدئذ في الثورة الحجازية ثم في الحركة القومية العربية بعد الحرب الكبرى. وسنفرد لهذه الحركة وآثارها في الادب العربي فصولاً خاصة وتقدمها الى كلمة في الحرب العالمية (١٩١٤ — ١٩١٨) وآثارها في [illegible] نحن بصدده

(١) القاها في [illegible] ١٩٠٩ وهي في المورد الصافي ص [illegible] الصافي مجلد ١ جزء [illegible] (٣) سلانيك هي المركز الاصلي للحركة الدستورية